

جمهورية النصاب المُنقَلَبْ محمد يوسف عدس

كان يقف منقلبًا على رأسه في ركن من الحديقة عندما ألتقيا لأول مرة وهو في صحبة أسرته في زيارة عائلية إلى أسرة "جاسنثا بوديكوم" .. كانا في سن الصِّبا وهذا النوع من الشقاوة أمر وارد ، ومع ذلك شعرت "جاسنثا" بالدهشة فسألته: "لم تفعل هذا يا إريك..؟! " فكانت إجابته موضع استغراب أكبر ؛ حيث قال: - "لِكي أرى العالمَ على حقيقته .. لأن ماترينه وأنتِ واقفة على قدميك هو الأقدام والأحذية وليست الوجوه والرؤوس كما تظنين" .. لم تفهم الصبية آنذاك إن كان إريك جادًا أم أنه يقصد المزاح..؟ ، ولم تدرك أن ما قاله إريك كان إرهاصًا بالحكمة التي انتهى إليها من كل تجاربه في الحياة ولازمته حتى فراش الموت .. فقد كان صنفًا من البشر التحمت تجاربه العملية بإنتاجه الفكري والأدبي ، حتى ليصعب عليك أن تميّز بين ما هو من تجاربه الخاصة ، وما هو محض خيال أدبيّ.

فقد آل على نفسه ألا يكتب عن شيءٍ إلا ما وقع في خبرته الشخصية ، و اختار أن يكتب عن المستضعفين والأشقياء والجوعى والمحرومين والمظلومين والمُهمّشين. ولكنه لم يكتب عنهم وهو جالس في غرفة مكتبه المريحة الدافئة ، كما يفعل غيرُه من الكُتّاب.. وإنما سعى إليهم حيث يوجدون ، وعاش معهم كما يعيشون: أكل طعامهم وتحدّث بلغتهم ، وأصيب بأمراضهم وعانى معاناتهم .. بل إنه مارس حياة التشرّد في لندن وباريس ؛ بلا عمل وبلا مأوى ، لكي يكتب عن حياة هذا القطاع المهمّش من البشر، وينقل صورة حية لواقعهم الأليم .. وقد انعكس هذا واضحا في روايته "ابنة القسيس".

كانت أولى تجاربه الصادمة ، وهو في سن التاسعة عشرة ، عندما تطوَّع للعمل في شرطة الإمبراطورية البريطانية بالهند ، مأخوذاً بفكرة أن بريطانيا الديمقراطية لديها رسالة تمدّين الشعوب الهمجية في الشرق ، وكانت بورما مقر عمله ، فشاهد الوجه الحقيقي القبيح للحضارة البريطانية المزعومة ؛ لم يرَ إلا الاستبداد وانتهاك حقوق الإنسان وكرامته ، وشاهد بنفسه أساليب الاستغلال والاستعباد ونهب ثروات الشعب الهندي .

كانت حكاية تمدّين الهمج إذن فريّةً ، فأصيب مع الإحباط النفسي بحمي "الضنك" التي أنهكت قواه البدنية ، ولكنه نجح في التغلب عليها ؛ فقد كان ما يزال في ريعان الشباب . وقد دفعته غريزته الأدبية إلى دخول ثاني أكبر سجن في بورما ليلتقي بالسجناء ويكتب عن قصصهم وآلامهم ومشكلاتهم ، و كانت كتاباته عن تجاربه في بورما وغيرها مفعمة بمشاعر إنسانية عميقة وصادقة ، حتى أن كاتبة بريطانية هي "ماريا إليسا أنجفورد" كتبت عنه تلخّص شخصيته في عبارة مشهورة .. قالت: إنه يمثل "حس العدالة المطلقة في أدق تفاصيلها".

ربما كان الرجل مخطئاً وهو يحاول البحث عن العدالة المطلقة على كوكب الأرض؛ فهذه العدالة المطلقة لا توجد إلا في السماء . ولكنه لم ييأس في حياته أبداً وهو يحاول أن يعرّي الاستبداد ويكشف عوراته ، ويتتبع أساليبه وحيله الإجرامية، وأساليبه في التمويه والخداع والتضليل . وقد سجل هذا في روايتين: "مزرعة الحيوان" ، و "Nineteen Eighty Four" [١٩٨٤] .. وهي آخر رواياته وأشهرها على الإطلاق. كتبها وهو يعاني من مرض السل في آخر مراحلها وأشدّها وطأة . لقد استوعب كيانه الصغير خبرات وتجارب ودراسات ، وواجبات إنسانية-فرضها على نفسه- تنوء بحملها الجبال ؛ فاستنزف رصيده من الحياة سريعاً ، لينتهي به المطاف على سرير الموت ، في المستشفى الجامعي بلندن سنة ١٩٥٠م ، مات ولم يكن عمره قد تجاوز السادسة والأربعين.

وهكذا رحل عن عالمنا ذلك الرجل النبيل الذي كان يحمل اسم "جورج أورويل" .. وقد عرفنا فيما بعد أن هذا كان الإسم الذي استعاره لينشر به كتاباته ، وكأنه كان يصنع كبرياءنا وأوهامنا ؛ وهو ينكر على نفسه الراحة ويختصر استمتاعه بالحياة الدنيا في أضيق الحدود ، ويضخى بكل شيء حتى اسمه الشخصي ، في سبيل غايات نبيلة ؛ دفاعاً عن المظلومين والمقهورين والمستضعفين ، وليفتح عيوننا على الحقائق الرهيبة التي تنتظر البشرية ، إن لم نفتح عقولنا ونتجرد من أوهامنا وننزل إلى ساحة المعركة .. نعم لم يعرفه العالم إلا بهذا الإسم المستعار، أما اسمه الحقيقي فهو "إريك آرثر بلير" .. كان كاتباً صحفياً وأديباً وشاعراً ، وناقداً ساخراً شديد السخرية بالشخصيات المنحرفة والأوضاع المنقلبة..

كان "جورج أورويل" كما رأينا غريب الأطوار ؛ فقد بدأ حياته الوظيفية موظفًا في خدمة أكبر مؤسسة استعمارية في حكومة الاحتلال البريطاني بالهند .. ولكنه انقلب عليها فجأة وتحول إلى ثائر ضد الإمبريالية والاستعمار.. ولأنه كان يؤمن بالعدالة الاجتماعية ، اعتنق الاشتراكية وتصور أنها هي الحل . ولأنه يعمل بما يؤمن به انخرط مع الجانب الشيوعي في الحرب الأهلية بأسبانيا ، وتعرض للموت أكثر من مرة ، وأصيب برصاصة في حنجرته ، ظل ينزف منها أياما قبل أن يتم نقله للعلاج بعيداً عن أرض المعركة ..

وانتهت تجربته بصدمة أخرى عندما اكتشف أن الاتحاد السوفيتي -الذي كان يوجّه الثوار ويمدهم بالمال والسلاح- لم يكن مهتمًا إلا بالترويج لأيديولوجيته والهيمنة على العالم ، ولم يكن ليعبأ بالحرية ولا الاشتراكية ولا العدالة الاجتماعية التي يحلم بها الثوار ، وأن أنصاره في أسبانيا كانوا أكثر دكتاتورية واستبدادًا من القوميين الذين يقودهم الجنرال فرانكو.

قدّم أورويل روايته في أول الأمر بعنوان "الرجل الأخير في أوروبا"، ولكنه عبّر عن حيرته -في خطاب له إلى الناشر قبل أشهر من صدور الرواية- بين هذا العنوان وعنوان آخر هو "١٩٨٤" فاقترح عليه الناشر أن يختار الأخير لأنه سيحقق

رواجًا تجاريًا أكبر، وهذا ما يهم الناشر. ولأنها رواية مقطوعة الصلة بالمألوف ، تعرضت منذ صدورها للحظر والملاحقات القضائية بحجة أنها عمل هدام ينطوي على أفكار تخريبية .

في هذه الرواية يتخيل "أورويل" جمهورية كبرى تنشأ في قلب العالم الغربي، تشتمل على أمريكا وبريطانيا وأوربا وكندا وأمريكا الجنوبية .. وذلك بعد حرب نووية سريعة ، تغير أوضاع العالم . أطلق عليها جمهورية "أوشينيا" التي يحكمها "الأخ الكبير" **The Big Brother** ، والزعيم الأوحده الذي يراقب كل شيء من خلال عيون وكاميراته المبتوثة في كل مكان ، حتى داخل الشقق والمساكن .. والذي تتولى أجهزته صياغة الواقع وتشكيله ؛ لكي تظل الشعوب في قبضة النظام وخدمته .. وذلك من خلال أربع وزارات هي:

الأولى- وزارة الحقيقة : لإشاعة الأكاذيب وفرضها على الناس ؛ ومسئوليتها الأساسية هي التحكم في المعلومات والأخبار والتعليم والفنون .. وتعمل على تصحيح الوثائق والمستندات التاريخية لتتفق مع كل ما يتفوه به الأخ الكبير من أكاذيب وخرافات وأضاليل ، وبذلك تصير كل مزاعمه حقيقية ومدعمة بالوثائق المعدلة .

والثانية- وزارة السلام : ووظيفتها تأجيج الحروب المتواصلة التي تخوضها أوشينيا ؛ بهدف أساسي وهو [استهلاك موارد البلاد] في مشروعات لا لزوم لها؛ بهدف إيجاد مبررات تحول دون رفع مستوى معيشة الجماهير لتظل قيد الفقر والحاجة .. وفي نفس الوقت ينكر نظامه أن هناك هبوطاً في مستوى المعيشة .. ورغم التفاوت الواضح بين فقر الجماهير، وبين الرخاء والرفاهية التي تطفح على وجه الطبقة الحاكمة ، فإن حكومة الأخ الكبير تدعي أن الجميع متساوون في أنهم لا يأكلون إلا ما يسد الرمق !!

والثالثة- وزارة الوفرة: وتتحكم في الموارد والغذاء وتقوم بترشيد إنتاجه واستهلاكه ، وتصدر كل ثلاثة أشهر تصريحات كاذبة تفيد ارتفاع مستوى المعيشة. ولكنها في واقع الأمر- دائبة العمل على تقليص الإنتاج والحصص .. وتعزز وزارة الحقيقة ادعاءات وزارة الوفرة- بتعديل الوثائق والأرقام لكي تثبت أن الحصص قد ارتفعت بالفعل!!

والرابعة- وزارة الحب: قانونها يجرم الحب الطبيعي ؛ فكل حب آخر دون حب الأخ الأكبر محظور في أنحاء الجمهورية .. لذلك ترصد الوزارة المتمردين الحقيقيين والوهميين ؛ تراقبهم وتقبض عليهم وتفرض عليهم أن يعتنقوا أفكار الحزب ، وعندما يُعتقل أحد هؤلاء الأعداء فإنه يتعرض للتعذيب المروع حتى ليكاد يلفظ أنفاسه .. ثم يرسل بعد ذلك إلى الغرفة [١٠١] ليواجه "أبشع أنواع العذاب

التي لم تخطر على عقل بشر ؛ حتى تتم إعادة هيكلته ويحلّ حب الأخ الكبير في قلبه محل التمرد.

هذه المنظومة المنقلبة رأسًا على عقب- كما يتنبأ بها جورج أروويل ، يصفها "أوبراين" احد شخصيات الرواية ، وأحد أعضاء الحزب الحاكم- بعبارة موجزة حيث يقول: " رؤية الحزب للمستقبل هي على هذا النحو :

سوف يندثر الفضول .. و تختفي المتعة من حياة الناس .. سنقضي على كل المتع المتعارضة .. ولكن ستظل نشوة السلطة .. لن تغيب البتة ، بل ستزداد.. ولكنها ستظل مختفية عن أنظار العامة .. محجوبة عنهم بأستار كثيفة .. و سترى دائمًا حشودًا من الجماهير تحتفل بنصر ما ، وتنتشي بسحق عدو مغلوب على أمره.. حقيقة الأمر، إذا أردت أن تتصور المستقبل ، فتخيل حذاءً يدهس وجهًا بشريًا إلى الأبد .."

من أجل التمويه على الجماهير الغافلة وإبقائها في حالة من الوهم والضياع الفكري- ابتدعت جمهورية الأخ الكبير لغة جديدة وقامت باستخدامها بأسلوب جديد ومنطق جديد: لا حديث عن المعارضين الذين قُتلوا أو غُيبوا في السجون ، فهؤلاء لا أشخاص ، والأشخاص يتم استئصالهم ، ثم يغيبون عن الوجود ، فهم غير موجودين ، ولم يوجدوا من قبل ، ولا بد من تعديل السجلات والوثائق التي تثبت أنهم لم يوجدوا في أي وقت من الأوقات..!

ويكمنُ اللغز في كلمة "أسود-أبيض" -مثلها كمثّل كثير من كلمات اللغة الجديدة- تحتوي على معنيين متناقضين ؛ فهي تعنى الادعاء أمام الخصوم أن الأسود أبيض، على عكس الحقيقة البادية للعيان ، كما تعني أن يُقرّ أعضاء الحزب -بمحض إرادتهم- أن الأسود أبيض إذا رأى الحزب ذلك ، بل وتعني القدرة على تصديق ذلك ، والإيمان به ونسيان أنهم قد آمنوا بعكس هذا يومًا ما .. ويقتضي هذا بالتالي تغيير الماضي نفسه ، وتغيير الوثائق الدالة عليه ، بصفة مستمرة ، عبرَ نظام التفكير الذي يحكم الجميع ، والذي يُعرف في اللغة الجديدة باسم "التفكير المزدوج" .. وهذا المفهوم يعنى ببساطة ، قدرة الفرد على أن يحتفظ في رأسه بفكرتين متناقضتين ؛ يؤمن بهما معًا ، وفي نفس الوقت يدافع عنهما بضراوة ؛ حسب ما تقتضى الظروف المتغيرة والمواقف المختلفة .

وتلك بعض الخصائص المبهرة لنجاح تربية الجماهير وتعليمهم في جمهورية الأخ الكبير كما تكشفه لنا رواية جورج أروويل .. وكأنه يتحدث عن جمهورية النصاب الانقلابي الكبير: الحقائق فيها أكاذيب .. والمشروعات أوهام .. والحق هو الباطل، والدين هو الإلحاد والفجور والفسوق والهرطقة .. والأبرياء الشرفاء إرهابيون .. والسفلة والأوغاد هم سادة القوم ؛ وكل شيء يكتسب خصائص الزنبق في حركة رجراجة دائمة وتغيرٍ مستمر ، والناس في حيرة دائمة ، ونزوع إلى الهجرة في الزمان والمكان والقيم .. حتى الأرض ومعالمها في مصر أصبحت دائمة الهجرة

فهي لا تستقر على حال واحدة ؛ كانت بالأمس مصرية، ولكنها -اليوم أو غداً- سعودية أو حبشية أو يونانية قبرصية أو سودانية ، أو إماراتية ، أو إسرائيلية أو صليبية .

لقد أُلقيَ في روعنا حتى الآن: أن النيل ليس مصرياً ولكنه احتكار حبشي ، وأنا كنا مخطئين في إيماننا على مر القرون السابقة "أن مصر هبة النيل" .. وأنه من الآن فصاعداً- علينا أن نتوقع انقطاع مياه النيل عن بيوتنا ومزارعنا في أي لحظة من المستقبل القريب .. وأن شرب مياه المجاري أصبح هو الاختيار الوحيد.

كما تم إخبارنا فجأة أن الجزيرتين [تيران وصنافير] المصريتين ليستا ملكاً لمصر وإنما هما جزء من الأراضي السعودية .. وهكذا لم يعد أحد من المصريين يعلم على وجه اليقين ، من سيملك غداً: سيناء مصر أو قناة السويسها أو حلايبها..؟ ، بل حتى أهراماتها وآثارها ، ولا أبا هولها الرابض على أرضها منذ آلاف السنين..؟! ومن سيملك دلتها وصعيدها وسواحلها الشمالية ، وثرواتها في البحر المتوسط أو البحر الأحمر.. أو صحراواتها الشرقية والغربية..!؟

كل قطعة من أرض مصر أصبحت في هجرة قهرية ، وكل شيء قابل للاختطاف والتغييب؛ كاختطاف رئيس الجمهورية المنتخب ، واختطاف المعارضين الأحرار للانقلاب العسكري وقتلهم الفوريّ أو البطيء والمبرمج في السجون والمعتقلات، واختطاف وتغييب الشباب الأبرياء ؛ فلا يدرى أهلهم وذووهم أين تم إخفاؤهم..؟ ، حتى يظهر أحدهم بالصدفة ميئاً في بعض أقسام الشرطة ، أو تظهر جثثهم ملقاة في الشوارع والطرق أو في الصحراء ، مع قصص ملفقة تنسجها -بغناء لا خجل معه- وزارة الألاحيقة أو وزارة البلطجية في جمهورية النَّصاب الكبير..!

myades34@gmail.com

نشر المقال بحريّة الشعب الجديد يوم الاثنين ٣٠ يناير ٢٠١٢م